رسائلٌ كتَبتُ تحت الرَصاص...

حكايَاتٌ لا تَمُوتَ.

صندوق البريد الأخير

قصة قصيرة

يمنى داي

صُنْدُوقُ البَرِيدِ الأَخِيرِ

بَقَلَم: يُمْنَى دَاي

المستوى: الثانية علوما

المعهد النموذجي بقابس

إهـــــداء

إلـى كُلِّ رُوحٍ أرهَقَها الانتظارُ،
إلـى كُلِّ حَرفٍ كُتِبَ بالدَّمِ والدَّمْعِ ولم يَجِد طَريقَهُ إلى صاحِبِه،
إلـى كُلِّ رسالةٍ ضاعَتْ في زَحْمةِ الحُروبِ وصَخَبِ القَنابل،
لعلّي أكونُ صَوتَها الأخيرَ... ولعلَّهُ صُندوقُها الأخير.

1

وُجُوهٌ مُخْتَلِفَةٌ، أَسْمَاءٌ مُتَبَايِنَةٌ، تَوَارِيخُ مِيلَادٍ شَتَّى، وَلَكِنَّ الْقَاتِلَ وَاحِدٌ. هَكَذَا بَدَأَتْ هَوَاجِسِي تَقْتَاتُ عَلَى ذِهْنِي، وَأَنَا أَخْطُو بِحَذَرٍ بَيْنَ أَنْقَاضِ بَيْتٍ قَدِيمٍ فِي حَيٍّ مَهْجُورٍ، حَيْثُ تُشْرِقُ الشَّمْسُ عَلَى الْجُدْرَانِ الْمَائِلَةِ، وَتَنْسَكِبُ أَشِعَّتُهَا بَيْنَ الْحُطَامِ بِطَرِيقَةٍ تَجْعَلُ الْغُبَارَ يَتَلَأْلَأُ كَأَنَّهُ آلَافُ جُسَيْمَاتٍ مِنَ الْمَاضِي الْعَالِقِ.

أَصْوَاتٌ مُتَعَدِّدَةٌ كَانَتْ تَخْتَرِقُ صَمْتَ الْمَكَانِ: خَرِيرُ الْمَاءِ الْعَالِقِ فِي فُوَّهَاتِ الْمَوَاسِيرِ الْقَدِيمَةِ، صَرِيرُ الْخَشَبِ الْمُتَهَالِكِ تَحْتَ قَدَمَيَّ، وَخَفَقَانُ قَلْبِي الْمُتَسَارِعُ. كُلُّ زَاوِيَةٍ مِنَ الْبَيْتِ كَانَتْ تَحْمِلُ أَثَرًا، كُلُّ شَقٍّ فِي الْجِدَارِ يَرْوِي قِصَّةً عَنْ غِيَابٍ أَوْ عَنْ رَحِيلٍ اضْطِرَارِيٍّ.

وَفِي الرُّكْنِ الْأَكْثَرِ ظُلْمَةً، يلوح الصُّنْدُوقُ وَقَدْ غَطَّاهُ الْغُبَارُ حَتَّى بَدَا وَكَأَنَّهُ جُزْءٌ مِنَ الْجِدَارِ نَفْسِهِ. رَائِحَةُ الْمَعْدِنِ الْقَدِيمِ وَالطِّلَاءِ الْمُتَقَشِّرِ حَمَلَتْنِي إِلَى زَمَنٍ لَمْ أَعِشْهُ، إِلَى أَيْدٍ لَمْ أَلْمَسْهَا، إِلَى أَصْوَاتٍ لَمْ أَسْمَعْهَا.

تَرَدَّدْتُ قَلِيلًا قَبْلَ أَنْ أَلْمَسَ الْغِطَاءَ، شُعُورٌ بِالرَّهْبَةِ امْتَزَجَ بِالْفُضُولِ. وَعِنْدَمَا رَفَعْتُهُ، انْبَعَثَتْ رَائِحَةُ الْوَرَقِ الْقَدِيمِ، مِزَاجٌ مِنَ الْهَبَاءِ، وَالرُّطُوبَةِ وَالذِّكْرَيَاتِ الْمَكْبُوتَةِ.

جَلَسْتُ عَلَى الْأَرْضِ، أَسْتَرِقُ النَّظَرَ بَيْنَ الشُّقُوقِ، أَرَى أَطْرَافَ الْأَوْرَاقِ الصُّفْرَاءِ، وَأَشْعُرُ بِحَرَارَتِهَا تَحْتَ أَصَابِعِي. كُلُّ وَرَقَةٍ كَانَتْ تَحْمِلُ نَبْضًا خَافِتًا لِلْحَيَاةِ... مَعَ مُرُورِ الْوَقْتِ، شَعَرْتُ بِأَنَّنِي أَصْبَحْتُ جُزْءًا مِنَ الْمَكَانِ، أَنَّ الْبَيْتَ، الْحَيَّ، الصُّنْدُوقَ، وَالذِّكْرَيَاتِ كُلَّهَا تَتَنَفَّسُ فِي دَاخِلِي. شَعَرْتُ بِالرَّهْبَةِ، بِالْمَسْؤُولِيَّةِ، وَبِحَاجَةٍ عَمِيقَةٍ لِأَنْ أَكُونَ نَاقِلًا لِتِلْكَ الْأَصْوَاتِ.

أَنعمتُ النَّظَرَ حَوْلِي، وَبَدَأْتُ أُلَاحِظُ التَّفَاصِيلَ الصَّغِيرَةَ: عَلَامَاتِ الْأَحْذِيَةِ الْقَدِيمَةِ عَلَى الْأَرْضِيَّةِ، خُدُوشَ الْجُدْرَانِ وَآثَارَ أَصَابِعِ الْأَطْفَالِ.مَدَدْتُ يَدِي ثَانِيَةً، وَأَخْرَجْتُ أوّلَ وَرَقَةٍ، شَعَرْتُ بِهَا تَحْتَ أَصَابِعِي نَبَضَتْ بِالْحُزْنِ، بِالْخَوْفِ، بِالْأَمَلِ. الْوَرَقَةُ كَانَتْ رِسَالَةً.

وَمَعَ كُلِّ رِسَالَةٍ أَخْرَجْتُهَا، شَعَرْتُ أَنَّ الصُّنْدُوقَ لَمْ يَكُنْ مُجَرَّدَ مَعْدِنٍ وَوَرَقٍ، بَلْ كَانَ قَلْبًا نَابِضًا، ذَاكِرَةً حَيَّةً لِلْفِلَسْطِينِيِّينَ، شَاهِدًا عَلَى الْأَلَمِ وَالصُّمُودِ...

حِينَ رَفَعْتُ الرِّسَالَةَ الْأُولَى، شَعَرْتُ بِيَدٍ أُخْرَى تُمْسِكُ بِي، كَأَنَّ الْمَاضِي يَطْلُبُ مِنِّي أَنْ أَكُونَ شَاهِدًا، أَنْ أَنْقُلَ لِكُلِّ مَنْ لَمْ تَصِلْ رِسَالَتُهُ بَعْدُ كَلِمَاته الّتي بقيت مُعَلَّقَةً، لعلّي أُعِيد لَهَا الْحَيَاةَ وَلَوْ

لِلَحْظَةٍ قَصِيرَةٍ... هَكَذَا بَدَأَتْ رِحْلَتِي مَعَ صُنْدُوقِ الْبَرِيدِ الْأَخِيرِ، بَيْنَ الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ، رِحْلَةٌ لَا أَعْرِفُ نِهَايَتَهَا بَعْدُ، لَكِنَّهَا بِكُلِّ تَأْكِيدٍ سَتَكْشِفُ لِي وُجُوهًا، أَسْمَاءً، قِصَصًا، وَرَسَائِلَ لَمْ تُرْسَلْ قَطُّ...

2

أمسكتُ الرِّسالةَ بين يديَّ المُرتجِفتَيْن كما لو أنّها تَحمِلُ ثِقْلَ عالَمٍ بأسره. كان وَجيبٌ غريبٌ يَندفِعُ في صَدري. بَدَتِ الأوراقُ بين أَصابِعي كأنَّها تَنبِضُ بالحياةِ، تُسِرُّ إليَّ هَمسًا خافِتًا: «اِقرَأْني على مَهَلٍ...».

فَتَحتُها بِحَذَرٍ، فَاِندَفَعَتِ الكَلِماتُ إلى رُوحي كما يَندَفِعُ السَّيلُ الجارِفُ. كُلُّ سَطرٍ كان يَحمِلُ في طَيّاتِهِ شَظايا خَوفٍ، وبَقايا حُبٍّ، وجِراحًا صامِتةً لِفَتاةٍ صَغيرةٍ خَطَّتْها بأَنامِلَ مُرتجِفَةٍ:

"غَزَّة، حَيُّ الشُّجاعِيَّةِ

الأربِعاءُ 18 مِن أيلول 2024

إلى أُمِّي الحَبيبَةِ، وأَبِي الغالِي، وأُختي الصَّغيرةِ العَزيزَةِ،

أَكتُبُ إلَيكُم وأنا مُنكَمِشَةٌ في رُكني المُفضَّلِ، ذاكَ المَكانُ الوَحيدُ الَّذي يَصِلُني فيه صَوتُ القَصفِ أَضعَفَ بِقَليلٍ. هُنا فَقَط، لا يَزالُ بِإمكاني أَن أَسمَعَ خَفَقاتِ قَلبي الهَشَّةَ، المُتَسارِعَةَ، المُذعُورَةَ خَشيةَ أَن تَتَوَقَّفَ في أَيَّةِ لَحظَةٍ.

أَكتُبُ إلَيكُم... خائِفَةً.

خائِفَةٌ أَن تَكونَ هذِهِ الكَلِماتُ آخِرَ ما أُرسِلُهُ إلَيكُم.

خائِفَةٌ أَنَّني قَد لا أَراكُم بَعدَ اليَومِ.

أُمِّي... أَبِي... أَرجوكُما، أَرجوكُما بِكُلِّ ما فيَّ مِن بَقايا قُوَّةٍ...

لا تَبكِيا.

لا تَدَعا الدُّموعَ تَمحُو آثارَ ذِكرايَ.

أُريدُكُما كما عَهِدتُكُما دائمًا: شامِخَيْنِ، ثابِتَيْنِ، عَصِيَّيْنِ على الانكسارِ.

اِبتَسِما لأَجلي...

أَمَّا أَنتِ يا صَغيرَتي... يا أُختي الحُلوة...

خُذِي لُعَبي، ضُمِّيها إلَيكِ، لَكِن لا تُهمِليها. اِقتَسِميها مَع أَطفالِ الحَيِّ؛ اِحمِلي حِكايَتي في قَلبِكِ، وإن

سَأَلَكِ أَحَدٌ عَنِّي يَومًا، فَأَخبِريهِ...
أَخبِريهِ مَن كُنتُ، وأَخبِريهِ كَم أَحبَبتُكُم.
أُمِّي... أَبِي... أُختي...
إن بَحَثتُم عَنِّي يَومًا تَحتَ الرُّكامِ، فلا تَدَعوا الحُزنَ يَنتابكم.
أَنا هُنا بَينَ جَنَباتِ قُلوبِكُم، في ذاكِرَتِكُم،
لا تَنسَوني.
أُحِبُّكُم... وسَأَظَلُّ أُحِبُّكُم... ولوِ ابتَلَعَتني الأَرضُ عَن آخِري."

حينَ اِنتهَيتُ مِنَ القِراءةِ، عَجَزتُ عَنِ الحَرَكَةِ. جَلَستُ صامِتًا، غارِقًا في الفَراغِ، أُحاوِلُ أَن أَستَوعِبَ فَداحَةَ ما اِحتَضَنَتهُ يَدايَ. كُلُّ حَرفٍ، كُلُّ كَلِمَةٍ، كُلُّ اِنحِناءَةٍ في مِدادِ القَلَمِ اِنغَرَسَتْ في رُوحي كَحَدِّ السَّيفِ.

هذِهِ الصَّغيرَةُ... لم تَكُن طِفلَةً وَحَسب.

كانَت إِناءً هَشًّا يَحتَضِنُ بَراءَةً، وحُبًّا لا تَسَعُهُ لُغَةٌ، وشَجاعَةً تَتَسامى على وَحشِيَّةِ الحَربِ ذاتِها.

تَغَشَّت عَيناياَ بِدُموعي ووَجَدتُني أَغرَقُ في نُواحٍ مَكتومٍ...

وفي تِلكَ اللَّحظَةِ، شَعَرتُ أَنَّني وَرِثتُ شَيئًا مِن رُوحِها.

صارَ خَوفُها خَوفي.

وصارَت آمالُها آمالي.

وأَصبَحَ حُلمُها حُلمي.

سَأَحمِلُ هذِهِ الرِّسالَةَ في داخِلي ما حَيِيتُ.

سَأَهمِسُ بِكَلِماتِها في صَمتِ اللَّيالي، وأَدَعُها تَتَرَدَّدُ في عُروقي، حتّى يَمتَزِجَ حِبرُها بِدَمي وصَوتُها بِأَنفاسي.

لأَنَّ بَعضَ الحِكاياتِ... لا تُقرَأُ.

إِنَّما تُعاشُ.

3

قَبَضتُ على الرِّسالةِ الثَّانِيَةِ كما لو أنَّها شَظِيَّةٌ قابِلَةٌ لِلتَّفَتُّتِ بَيْنَ أَصابِعي المُرتَجِفَةِ. كانَت مَطوِيَّةً بِغَيْرِ نِظامٍ، حَوافُّها مُتَيَبِّسَةٌ؛ لَم أَعلَمْ أَهِيَ دُمُوعٌ جَفَّت، أَم عَرَقٌ سالَ، أَم كِلاهُما مَعًا؟ مَرَّرْتُ أَصابِعي عَلَيْها وَتَرَدَّدتُ لَحظَةً قَبْلَ فَتْحِها، لَكِنَّ فُضولِي دَفَعَني دَفْعًا.

"إلَى مَن يَجِدُ هذِهِ الرِّسالَةَ...

لا أَعلَمُ إن كانَت كَلِماتِي سَتَبْقَى، لَكِن كانَ لا بُدَّ لِي أَنْ أَكْتُبَها".

خَطُّها كانَ صَغيرًا، دَقيقًا، وَواضِحًا. تَخَيَّلْتُ أَصابِعَها وَهِيَ تُمسِكُ القَلَمَ، حِبْرٌ يُلَطِّخُ راحَتَيْها، وَرائِحَةُ المُطَهِّراتِ العالِقَةُ في ثَوْبِها الأَبيَضِ. وَمَعَ كُلِّ كَلِمَةٍ، أَخَذَتِ الجُدرانُ مِن حَوْلي تَتَلاشَى، وَدَخَلْتُ عالَمَها...

"أنا الدُّكتورَةُ مَرْيَم خَليل.

أَعمَلُ في مُستَشْفَى الشِّفاءِ... أَو لَعَلِّي كُنتُ أَعمَلُ، لِأَنَّني لا أَعلَمُ إن كانَ المَبنى قائِمًا الآنَ، أَو إن كُنتُ أَنا نَفسي ما زِلْتُ حَيَّةً حِينَ تَصِلُ هذِهِ الوَرَقَةُ إلَى يَدِك.

كُلَّ صَباحٍ، كُنتُ قَد وَلَجْتُ فيهِ أَروِقَةَ المُستَشْفَى، عَرَفتُ أَنَّني أَدخُلُ مَكانًا تَأْتِي إلَيهِ الأَرواحُ لِتَموتَ. كُنَّا نَعتَقِدُ يَومًا أَنَّ المُستَشْفَياتِ مَلاذٌ آمِنٌ، حَيْثُ تَنتَصِرُ أَيْدِي الأَطِبَّاءِ عَلَى المَوتِ، وَحَيْثُ يَتَّحِدُ العِلمُ مَعَ المُعجِزَةِ.

لَكِن هُنا... المَوتُ يَنتَصِرُ دائمًا.

قَبْلَ أَنْ تَبدَأَ الحَربُ كُنتُ أَعُدُّ أَيّامِي بِعَدَدِ القُلُوبِ الَّتِي تُنقَذُ، وَبِعَدَدِ الأَنفاسِ الَّتِي تُستَعادُ... أَمَّا اليَومَ، فَأَحسِبُها بِعَدَدِ الجُثَثِ الَّتِي تَكَدَّسَتْ في المَمَرّاتِ".

تَوَقَّفْتُ عِندَ هذَا السَّطرِ. شَعَرتُ بِنَصلٍ بارِدٍ يَنغَرِسُ في صَدري، وَمَعَ ذَلِكَ دَفَعتُ عَيْنَيَّ لِمُواصَلَةِ القِراءَةِ:

"لَقَد رَأَيْتُ ما لا يَنبَغِي لِإنسانٍ أَنْ يَراهُ.

أَطْفالٌ حَديثو الوِلادَةِ، أَجسادُهُم هامِدَةٌ، بلا رُؤوسٍ بَعدَ أَنْ مَزَّقَتهُم القَذائِفُ. صِغارٌ بلا أَطرافٍ، مَلفوفُونَ في قِطَعِ أَقمِشَةٍ انتَزَعَتها أُمَّهاتهُم مِن ثِيابِهِنَّ، لِأَنَّنا لَم نَعُد نَملِكُ أَكياسًا تَكفِي لِلمَوتى. هَل تَعرِفُ مَعْنَى أَنْ تَنفَدَ الأَكفانُ المعدَّة لِاحتِواءِ الجثامين؟ يَعني أَنْ نَلُفَّ أَجسادَهُم في أَغطِيَةٍ مُثقوبَةٍ، أَو أَكياسٍ بلاسْتيكِيَّةٍ مُمَزَّقَةٍ، أَو سَتائِرَ مُنتَزَعَةٍ مِن نَوافِذِ بُيوتٍ مُدَمَّرَةٍ"!

أَحسَستُ بِدُوارٍ شَديدٍ. ضَمَمتُ الوَرَقَةَ إلَى صَدري كما لَو أَنَّ قُربَها سَيُخَفِّفُ ثِقلَها...

"فَقَدتُ أَطفالي هُنا.

كانَ المُستَشْفَى مُكتَظًّا بِالمُصابينَ يَومَها، وَلَم أَجِدْ مَكانًا سِوى مَكتَبي لِأَترُكَ يُوسُفَ ذَا التِّسعة أَعوامٍ، وَلَيَانَ ذاتَ الخَمسِ سَنَواتٍ، آمِلَةً أَنْ يَكونا بِأَمانٍ. ثُمَّ سَقَطَتِ القَذيفَةُ. كُنتُ في غُرفَةِ العَمَليّاتِ حينَ انهارَ السَّقفُ. رَكَضتُ... يَا اللهُ! كَيفَ رَكَضتُ حَتّى أَحرَقتُ رِئتَيَّ، لَكِن حينَ وَصَلتُ لَم أَجِدْ إِلّا الصَّمتَ... وَالغُبارَ... وَجَسَدَيْنِ صَغيرَيْنِ غارِقَيْنِ في الرُّكامِ. نَبَشتُ الحِجارَةَ بِيَدَيَّ العارِيَتَيْنِ حَتّى تآكلت أَظفاري، صَرَختُ حَتّى تَمَزَّقَ حَلقِي، لَكِنَّني لَم أَستَطِعْ أَنْ أَستَخرِجَ سِوى فُتاتِ أَجسادٍ مَسحوقَةٍ، مُحَمَّلَةٍ بِالغُبارِ. غَسَلتُ ما تَبَقّى مِن وَجهِ يُوسُفَ، مَسَحتُ الدَّمَ المُتَجَمِّدَ عَن مَوضِعٍ في جَبينِهِ، وَغَسَلتُ خَصْلاتِ لَيَانَ المُتَناثِرَةَ، نَزَعتُ مِن أَطرافِها بَقايا التُّرابِ المُلتَصِقَةِ. ثُمَّ وَضَعتُ ما بَقِيَ مِنهُما بِيَدَيَّ... في ثَلّاجَةِ المَوتَى ذاتِها، بَينَ أَشلاءِ أَطفالٍ آخَرينَ لَم يَجِدوا كفنا".

لَم أُدرِكْ أَنَّني أَبكِي حتّى شَعَرتُ بِحَرارَةِ دُمُوعي عَلَى الوَرَقَةِ. جاهَدتُ لِأُكمِلَ:

"يَسأَلونَني اليَومَ لِماذا ما زِلتُ أَعمَلُ هُنا؟

لِماذا أَبقَى؟

لِأَنَّني هُنا دَفَنتُ طِفلَيَّ.

لِأَنَّني لَو غادَرتُ... فَمَن سَيَضُمُّ هذِهِ الأَجسادَ الصَّغيرَةَ حينَ يَرفُضُها الجَميعُ؟

كُلَّ لَيلَةٍ، أَمُرُّ عَلَى المشرَحَةِ، عَلَى الأَدراجِ المَعدِنِيَّةِ الَّتي لَم تَعُد تَتَّسِعُ لِصِغارٍ لا يَعرِفُونَ النَّومَ. أَقرَأُ أَسماءَهُم بِصَوتٍ خافِتٍ، أَحفَظُ مَلامِحَهُم حينَ تَغيبُ أُمَّهاتُهُم عَنِ الوَعي مِن فَرطِ الصَّدمَةِ.

لَكِنَّ الحَقيقَةَ هِيَ... أَنَّني تَعِبتُ.

تَعِبتُ كَثيرًا...

أَكثَرَ مِمَّا يَحتَمِلُ جَسَدٌ واحِدٌ، وَقَلبٌ واحِدٌ، وَحَياةٌ واحِدَةٌ".

تَوَقَّفَتِ الرِّسالَةُ فَجأَةً. لا تَوقيعَ، لا نِهايَةَ، لا تَوديعَ... فَقَط لَطخَةٌ داكِنَةٌ مِن دَمٍ يابِسٍ حَيْثُ اِنزَلَقَت يَدُها المُرتَجِفَةُ. جَلَستُ طَويلًا، أُحَدِّقُ في الوَرَقَةِ حَتّى ضاعَ حَولي كُلُّ صَوتٍ. طَوَيتُها بِحَذَرٍ، أَعدتُها إِلَى اِنثِناءاتِها القَديمَةِ، كما لَو أَنَّني أَدفِنُ الأَلَمَ الَّذِي فيها، لَكِنّ شَيئًا في صَدري كانَ يَزدادُ ثِقلاً لا يُطاقُ.

وَلِلمَرَّةِ الأُولَى مُنذُ عَثَرتُ عَلَى هذَا الصُّندوقِ البَريدِيِّ... تَمَنَّيتُ أَنَّني لَم أَفتَحْهُ أبدًا.

4

حدَّقْتُ في الظَّرْفِ الثَّالِثِ طَويلًا... طَويلًا حتّى شَعَرْتُ أنَّ الزَّمانَ كُلَّهُ عُلِّقَ في تِلْكَ اللَّحْظَةِ، وأنَّني بَيْنَ نَبْضَةٍ وأُخْرَى أَسْمَعُ وَقْعَ أَنْفاسِي... اِمْتَدَّتْ أَصابِعي نَحْوَهُ بِارْتِجافٍ. كانَتْ حَوافُّهُ مُهْتَرِئَةً، وَوَرَقُهُ مُتآكِلًا عِنْدَ الزَّوايا كأنَّهُ شَقَّ طَريقَهُ عَبْرَ نِيرانٍ وَرَمادٍ لِيَصِلَ إِلَيَّ.

"اِسْمِي يُوسُفُ خالِد،

صَحَفِيٌّ مِنْ غَزَّةَ...

لكِنْ هُنا، لا تَعْنِي الصَّحافَةُ ما تَعْنِيهِ في أَيِّ مَكانٍ آخَرَ.

هُنا كُلُّ صُورَةٍ أَنْقُلُها هِيَ شَهادَةُ حَياةٍ قَبْلَ أَنْ تَصِيرَ ذِكْرَى مَقْبُورَةً.

حِينَ أَسْمَعُ صَوْتَ طائِرَةٍ مُسَيَّرَةٍ أَتَذَكَّرُ أنَّ الصَّحَفِيَّ في غَزَّةَ لَيْسَ كاتِبَ خَبَرٍ عابِرٍ، بَلْ إِنَّهُ يُعْتَبَرُ جُنْدِيًّا مُعادِيًا في عُرْفِ الاِحْتِلالِ.

كُلَّما غادَرْتُ بَيْتِي تَوَسَّلَتْ إِلَيَّ زَوْجَتِي أَنْ أَبْقَى، وَكُنْتُ أَسْأَلُ نَفْسِي: هَلْ سَأَعُودُ حَيًّا؟ أَحْيانًا أَكْذِبُ. أَعِدُها وَابْنَتِي أَنِّي سَأَبْتَعِدُ عَنِ القَصْفِ. لكِنْ في غَزَّةَ... لَمْ يَعُدْ هُناكَ بَعيدٌ.

السَّماءُ هُنا واسِعَةٌ...

لَكِنَّ مَدَى صَواريخِهِمْ أَوْسَعُ.

أُخْبِرُها أَنَّني حَذِرٌ... لكِنْ كَيْفَ يُمْكِنُ لِلْحَذَرِ أَنْ يَحْمِيَني وَالطَّائِراتُ تَحُومُ فَوْقَ رُؤُوسِنا كَغِرْبانِ مَوْتٍ تَبْحَثُ عَنْ فَريسَتِها؟

رَأَيْتُ أُمَّهاتٍ يَنْبُشْنَ الرُّكامَ بِأَيْدٍ دامِيَةٍ تَرْتَعِشُ، وَآباءً يَحْمِلونَ عَلى أَذْرُعِهِم أَجْسادَ أَطْفالٍ غادَرُوا الحَياةَ. شَوارِعُ كانَتْ تَفيضُ بِالضَّحِكاتِ صارَتْ كُتْلَةً من رُكامٍ صامِتٍ.

وَقَفْتُ فَوْقَ أَطْلالِ مَدْرَسَةٍ انْدَثَرَتْ، أُراقِبُ الغُبارَ يَسْتَقِرُّ فَوْقَ أَقْلامٍ مُهَشَّمَةٍ، وَكُتُبٍ مُمَزَّقَةٍ... بَقايا طُفولَةٍ لَمْ تَكْتَمِلْ.

صَوَّرْتُ مُسْتَشْفَياتٍ تَخْتَنِقُ بِدِماءِ الجَرْحى، وَمَمَرّاتٍ ملأى بِجُثَثٍ صامِتَةٍ، وَرَغْمَ ذلِكَ... حِينَ تُوَجَّهُ الكامِيرا نَحْوي، عَلَيَّ أَنْ أَتَكَلَّمَ.

عَلَيَّ أَنْ أَرْوِيَ.

لأَنَّهُ إِنْ صَمَتُّ، لَنْ يَسْمَعَ أَحَدٌ صُراخَنا.

وَإِنْ جَهِلَ العالَمُ... مُتْنا مَرَّتَيْنِ: مَرَّةً تَحْتَ قَنابِلِهِمْ، وَمَرَّةً أُخْرَى تَحْتَ صَمْتِهِمْ وَخِذْلانِهِمْ.

قَبْلَ يَوْمَيْنِ... سَمِعْتُ صوت الطَّائِرَةَ تَحُومُ فَوْقَ رُؤُوسِنا.
كُنَّا قُرْبَ أَطْلالِ مَخْبَزٍ يَنْهَشُهُ الجُوعُ، نُوَثِّقُ المَجاعَةَ وَهِيَ تُحْكِمُ قَبْضَتَها عَلى أَرْواحِنا، حِينَ اخْتَرَقَ أَزيزٌ حادٌّ الهَواءَ.
تَجَمَّدْتُ مَكانِي. ذلِكَ الصَّوْتُ لا يُخْطِئُهُ قَلْبٌ عاشَهُ... كَأَنَّ المَوْتَ يُمْسِكُ بِرَقَبَتِكَ وَيُقَرِّبُ أَنْفاسَهُ مِنْ أُذُنِكَ. وَفي لَحْظَةٍ واحِدَةٍ، قَفَزَتِ الأَسْماءُ إِلى ذِهْنِي: حَمْزَةُ الدَّحْدُوح، إِسْماعيلُ الغُول، شيرينُ أَبُو عاقِلَةَ... أَسْماءٌ كانَتْ وُجُوهًا تُحِبُّ الحَياةَ، ثُمَّ صارَتْ ذِكْرَى.
وَتَساءَلْتُ: هَلْ سَأَكُونُ التَّالِيَ؟
هَلْ سَيُصْبِحُ اِسْمِي، أَنا أَيْضًا، خَبَرًا في شَريطٍ عابِرٍ؟"
قَلَّبْتُ الصَّفْحَةَ بِيَدٍ مُرْتَجِفَةٍ، كَأَنِّي أَحْمِلُ خَوْفَهُ كُلَّهُ بَيْنَ كَفَّيَّ.
"أُصَوِّرُ... لأَنِّي أَخافُ. أَخافُ أَنْ تَخْتَفِيَ حِكاياتُنا بَيْنَ أَنْقاضِ البُيُوتِ. أَخْشَى أَنْ يُحَوِّلَنا العالَمُ إِلى أَرْقامٍ باهِتَةٍ، بلا وُجُوهٍ وَلا أَصْواتٍ.
بِالأَمْسِ... رَأَيْتُ مَوْتَ أَقْرَبِ أَصْدِقائِي.
كُنَّا نُعِدُّ تَقْريرًا مَعًا، حِينَ شَطَرَ الاِنْفِجارُ الشّارِعَ نِصْفَيْنِ. كانَ يُمْسِكُ الكامِيرا... وَأَنا أُمْسِكُ المِيكْروفونَ.
ما زالَ الطَّنِينُ يَتَرَدَّدُ في أُذُنِي، وَما زالَتِ النّارُ تَلْسَعُ وَجْهِي. بَحَثْتُ عَنْهُ وَسْطَ الدُّخانِ، نادَيْتُهُ بِاِسْمِهِ، وَحِينَ وَجَدْتُهُ... لَمْ يَبْقَ وَجْهٌ لِأَتَعَرَّفَ عَلَيْهِ.
أَرَدْتُ أَنْ أَهْرُبَ... وَاللَّهِ أَرَدْتُ.
لَكِنَّنِي اِلْتَقَطْتُ كامِيرَاتَهُ.
وَأَكْمَلْتُ التَّصْويرَ.
لأَنَّهُ هُنا، في غَزَّةَ... مَوْتُنا لا بُدَّ أَنْ يُوَثَّقَ.
فَإِنْ لَمْ نُصَوِّرْهُ... فَمَنْ سَيَفْعَلُ؟"

5

لَمْ أَعُدْ إلى صُنْدوقِ البَريدِ في ذلِكَ اليَوْمِ. لَمْ أَسْتَطِعْ. بَعْدَ أَنْ قَرَأْتُ عِشْرينَ رِسالَةً خِلالَ الأَسَابيعِ الماضِيَةِ - كُلُّ واحِدَةٍ مِنْها مُثْقَلَةٌ بِأَنينٍ مَوْجوعٍ، أَوْ فَقْدٍ فادِحٍ، أَوْ يَأْسٍ صامِتٍ خَفِيٍّ - كانَ مُجَرَّدُ التَّفْكيرِ في فَتْحِ رِسالَةٍ أُخْرى في المَكانِ ذاتِهِ فَوْقَ طاقَتي. كانَ عَلَيَّ أَنْ أَتَنَفَّسَ، أَنْ أَبْتَعِدَ عَنِ الغُرْفَةِ الضَّيِّقَةِ، عَنْ رائِحَةِ الحِبْرِ وَالوَرَقِ وَالحُزْنِ في أَرْكانِها.

أَخَذْتُ الرِّسالَةَ الرّابِعَةَ وَالعِشْرينَ مَعي إلى المَسْجِدِ العَتيقِ في آخِرِ الشّارِعِ. كانَت قُبَّتُهُ البَيْضاءُ تَلْمَعُ بِخُفُوتٍ تَحْتَ شَمْسٍ آفِلَةٍ. هُناكَ، في السّاحَةِ، جَلَسْتُ عَلَى الدَّرَجاتِ الحَجَرِيَّةِ الباردَةِ، أَفْتَحُ الظَّرْفَ بِيَدَيْنِ مُرْتَجِفَتَيْنِ.

كانَ التّاريخُ مُثَبَّتًا في زاوِيَةِ الرِّسالَةِ العُلْيا:

"غزّة 14 تمّوز 2024

السَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللهِ وَبَرَكاتُهُ،

يا بُنَيَّ، اغْفِرْ لي إِنْ خانَتْني عِباراتي؛ فَقَدْ أَرْهَقَ الجُوعُ يَدَيَّ حَتّى إِنَّ إِمْساكَ القَلَمِ باتَ مُرْهِقًا.

أَنا الشَّيْخُ مَحْمودٌ، إِمامُ الجامِعِ سابِقًا، انّي أكتب اليوم لأعْلمَكَ: لَقَدْ أَكَلَ الجُوعُ مِنْ جَسَدي حَتّى صِرْتُ كَظِلٍّ مُسَمَّرٍ فَوْقَ عِظامٍ ناحِلَةٍ. وَوَجْهي... أَراهُ أَحْيانًا في زُجاجٍ نافِذَةٍ مُتَشَقِّقَةٍ في بَيْتِنا، فَلا أَكادُ أَعْرِفُ الرَّجُلَ الَّذي يُحَدِّقُ بي.

كُلَّ يَوْمٍ أَدْعُو اللهَ أَنْ يُقَوِّيني- لا مِنْ أَجْلي، بَلْ مِنْ أَجْلِ الأَطْفالِ الَّذِينَ يَأْتُونَني بَعْدَ الصَّلاةِ، أُقَسِّمُ ما تَبَقَّى لَدَيْنا مِنْ خُبْزٍ إِلى قِطَعٍ صَغيرَةٍ، وَأُوهِمُ نَفْسي - رُبَّما بِسَذاجَةٍ - أَنَّ عَدَدَ هذِهِ القِطَعِ إِذا كَثُرَ يَكْفي لِيُخدَعَ مَعِدَةً فارِغَةً.

وَلَكِنَّ اللهَ يَعْلَمُ، يا بُنَيَّ... حَتّى الفُتاتُ صارَ عَزيزًا.

رَأَيْتُ الأُمَّهاتِ يَغْلِينَ الحَشائِشَ لِيُسْكِتْنَ صُراخَ أَطْفالِهِنَّ الرُّضَّعِ، وَرَأَيْتُ الآباءَ يُطَأْطِئُونَ رُؤوسَهُمْ خَجَلًا حِينَ يَعْجَزُونَ عَنْ جَلْبِ رَغيفٍ واحِدٍ. هَلْ تَعْرِفُ ماذا يَفْعَلُ العَجْزُ بِقَلْبِ الرَّجُلِ حِينَ يَطْلُبُ مِنْهُ طِفْلُهُ شَرْبَةَ ماءٍ، فَلا يَجِدُ لَهُ جَوابًا؟

البارحة، جاءَني صَديقٌ قَديمٌ - أَبو كَريمٍ - بَعْدَ صَلاةِ العِشاءِ. اِنْهارَ إِلى جِواري، وَهَمَسَ: "يا شَيْخُ... لَمْ أَعُدْ أَحْتَمِلْ...اِبْنَتي الصُّغْرى ماتَتْ عِنْدَ الفَجْرِ... نامَتْ وَجَوْفُها خاوٍ... وَلَمْ تَسْتَيْقِظْ".

جَلَسْتُ مَعَهُ حَتّى أَذانِ الفَجْرِ، يَدي عَلَى كَتِفِهِ، لا كَلِمَةَ بَيْنَنا، وَدُمُوعُنا تَهْوي مَعًا. قُلْتُ لَهُ ما أَقُولُهُ لِنَفْسي كُلَّ لَيْلَةٍ: "اِصْبِرْ يا أَخي... إِنَّ اللّٰهَ مَعَنا... يَسْمَعُ وَيَرى." وَلَكِنِّي أَعْتَرِفُ لَكَ، يا بُنَيَّ، أَنَّهُ في بَعْضِ اللَّيالي... حَتّى أَنا - خادِمُ هذَا المَسْجِدِ- أُصارِعُ نَفْسي كَيْ لا يَتَصَدَّعَ إيماني.

هَلْ تَعْرِفُ كَيْفَ يَكونُ الشُّعورُ حِينَ يَبْدَأُ الجَسَدُ في اِلْتِهامِ ذاتِهِ من شدّة الجوع؟ وَالأَطْرافُ تَتَجَمَّدُ، وَالعالَمُ يُصْبِحُ بَعيدًا، كَأَنَّكَ تَغْرَقُ في غَيْبُوبَةٍ وَأَنْتَ يَقْظانٌ. وَمَعَ ذلِكَ... نَصْبِرُ. نَتَحَمَّلُ. لِأَنَّ هذِهِ الأَرْضَ - غَزَّتَنا - عَلَّمَتْنا أَنْ نَحْيا بِأَقَلِّ مِنْ لا شَيْءَ، أَنْ نَزْرَعَ في القُلوبِ أَمَلًا حَتّى لَوْ بَدا الأَمَلُ كِذْبَةً كَبيرَةً.

إِنْ بَلَغَتْكَ هذِهِ الرِّسالَةُ، فارْفَعْ يَدَيْكَ بِالدُّعاءِ لَنا. اُدْعُ اللّٰهَ أَنْ يُثَبِّتَ قُلُوبَنا، وَأَنْ يَحْفَظَنا.

وَالسَّلامُ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَةُ اللّٰهِ، الشَّيْخُ مَحْمودُ بْنُ سَلِيمٍ"

أَطْبَقْتُ الوَرَقَةَ بِبُطْءٍ، وَأَعَدْتُها إِلى صُنْدوقِها مَعَ سابِقاتِها...

كانَتِ الأَخِيرَةَ...

6

سِرتُ فِي شَوَارِعِ غَزَّةَ المُثخَنَةِ بِالجِرَاحِ، وَالغُرُوبُ يَنسَكِبُ عَلَى الأُفُقِ. الهَوَاءُ مُثْقَلٌ بِالغُبَارِ وَالرَّمَادِ، مُمتَزِجٌ بِرَائِحَةِ الزَّيْتُونِ، وَكَأَنَّ المَدِينَةَ تَتَنَفَّسُ مَاضِيًا لَمْ يَغَادِرْهَا بَعْدُ.

لَمْ أَكُنْ بِحَاجَةٍ إِلَى صُنْدُوقِ البَرِيدِ اليَوْمَ. كُنْتُ قد أتممتُ قراءةَ كلِّ رسالةٍ احتواها...

عَلَّمَتْنِي أَصْوَاتُ العِشْرِينَ شَيْئًا كُنْتُ أَعْلَمُهُ دَوْمًا وَلَمْ أَجْرُؤْ عَلَى تَسْمِيَتِهِ: إِنَّ أَسْمَى طُرُقِ الدِّفَاعِ عَنْ الوَطَنِ هِيَ أَنْ تَمْنَحَهُ قِصَّةً. أَنْ تَكْتُبَهَا حَيَّةً، سَطْرًا بِسَطْرٍ، بِحَيْثُ لَا قَنْبَلَةٌ، وَلَا جُوعٌ، وَلَا مَوْتٌ قَادِرٌ عَلَى مَحْوِهَا، وَأَنْ تُصْبِحَ الكَلِمَاتُ حِصْنًا لَا يَهْدِمُهُ الزَّمَانُ.

فَتَحْتُ دَفْتَرِي، وَيَدَايَ تَرْتَجِفَانِ. تَدَفَّقَتِ الكَلِمَاتُ - صَادِقَةً، ثَائِرَةً، حَيَّةً. كَتَبْتُ عَنِ الفَتَاةِ الَّتِي تَرَكَتْ وَصِيَّتَهَا لعائلتها، عَنِ الصَّحَفِيِّ الَّذِي يسعى لِيَكْشِفَ لِلْعَالَمِ مَا رَفَضَ أَنْ يَرَاهُ، عَنِ الطَّبِيبِةِ الَّتِي تَرَى الجُثَثَ كُلَّ يَوْمٍ وتَنْقُلُهَا، وَعَنِ الشَّيخِ الَّذِي جَاعَ وَلَمْ يَفْقِدْ إيمَانَهُ. اِنْدَمَجَتْ أَصْوَاتُهُمْ مَعَ صَوْتِي، وَفَهِمْتُ أَخِيرًا أَنَّنِي لَمْ أَكُنْ مُجَرَّدَ صَبِيٍّ يَجْمَعُ الرَّسَائِلَ، بَلْ كُنْتُ شَهِيدَهُمْ.

ثُمَّ تَوَقَّفْتُ، أَنْظُرُ إِلَى السَّطْرِ الأَوَّلِ الَّذِي كَتَبْتُهُ. ارْتَجَفَ قَلْبِي، وَانحبسَتْ أَنْفَاسِي.

العنوان بدا لي فخما، مَكْتُوبًا بِيَدِي:"صُنْدُوقُ البَرِيدِ الأَخِيرِ"

وَفِي لَحْظَةِ صَمْتٍ رَهِيبَةٍ، شَعَرْتُ بِثِقَلِ مَا أَحْمِلُ: الحُزْنَ، الأَصْوَاتَ، الخَرَابَ... لَمْ يَعُدْ سِرًّا، وَلَمْ يَعُدْ فِعْلًا صَامِتًا مِنْ أَجْلِ البَقَاءِ. كَانَ إِعْلَانًا، شُعْلَةً تَتَوَهَّجُ فِي الظَّلَامِ، كَانَت غَزَّةُ تَتَنَفَّسُ، وَكَانَت قِصَصُهَا تَسْتَعِيدُ الحَيَاةَ مَعَهَا. وَقَفْتُ، وَ أَمْسَكْتُ الدَّفْتَرَ بِإِحْكَامٍ، وَلأَوَّلِ مَرَّةٍ شَعَرْتُ بِالحُرِّيَّةِ.

تَنَفَّسْتُ المَدِينَةَ حَوْلِي، وَالأُفُقُ قَدِ اخْتَفَى، فَهَمَسْتُ بِوَعْدٍ أَخِيرٍ:

"سَأَكْتُبُ عنكُمْ...وستُذْكَرُون..."

–✿✿✿– تَمَّتْ بِفَضْلِ اللهِ –✿✿✿–